الفصل السابع

مديح الأوطان والبلدن

١ ــ الأوطان :

أحب العربى الأرض التى عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً وحرقة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقًّا ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب ! وفى الشعر العربى كثير من هذا المديح بدأ فى الجاهلية ولم ينته إلى اليوم ، وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، تريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سلمى أن يصُوب سحابها
بلاد بهـا حلّ الشباب تمائمى وأول أرض مَسّ جلدى ترابها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التى مس ترابها جلده أول ما مسّ ؛ فهى وطنه وهى موضع حبه وتقديسه. وهو فى ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطق ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومى يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِبْتُ به الشَّبيبةَ والصِّبَا ولَبِسْتُ ثوب العيش وهو جديدُ

فإذا تمثل فى الضمير رأيتــه وعليه أفنان الشباب تميدُ

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر فى الضمير ، فيرى الشباب وما إلى الشباب من عيش نضير وحياة شابة . ويقول كذلك فى أسباب حبّ الوطن :

وَحَبَّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ عهود الصبي فيها فحنُّوا لذلكا

فالوطن مرتع الشباب وموطن اللذائذ الأولى، ومحل الحبّ الأول يألفه الفتى أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه من شجر وعضاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة ، فالشاعر يقول :

تمتَّع من شميم عرار نجد فَمَا بَعْد العشية من عَرارِ

فالعرار هذا النبت الطيب يملأ أنف الشاعر ورئتيه وهو فى نظره أضخم من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألف الأحبة وموطن الأصدقاء وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر والماء والزهر والنور والظل والشعاع ، وإنما يكون لما ينعكس منها فى النفس ، وينسكب فى الروح ، ويجرى مجارى الدم ، فتتجسم كما يريد الخيال ، وتبدو كما يرى الحب ، وهذا هو الوطن ، بقربه النعيم ، وفى بعده الجحيم ، كما يقول الشاعر :

إذَا دَنَتِ المَنَازِلُ زَادَ شَوْقى ولا سيمَا إذا دَنَت الخِيَامُ
فلمح العَيْن دون الحىّ شهْرٌ ورجعُ الطَّرف دون السَّيْر عام

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفى الكبد تصدّع ، ويقبلون إليه وفى النفس شفاء .

وقد تبدلت نظرة العربى إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال ، فنى القرن الثالث . قال أبو تمام يشرح حبه للوطن العربى فيقول :

بالشَّام قومى وبغداد الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظنُّ النَّوى ترضى بما صَنَعتْ ... حتَّى تبلغنى أقصى خُرَاسَانِ

ونحن اليوم ننظر بعينى أبى تمام إلى هذا الوطن العربى الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلى فى الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها ، ويشتد فى النخوة والاستماتة فى سبيلها ، فكم سالت دماء لحماية الحمى والذياد عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس فى القدماء، وشوقى فى المحدثين . فقد تغرّب كل منهما مضطرًّا ، وأنشد كل منهما فى حب الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوقى قضى مدة النفى فى الأندلس ، فأرسل يصف وطنه فى قصيدة جميلة :

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نَفْسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل ... ظمأ للسواد من (عين شمس)
شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعة ولم يخل حسّى

فاشتغل بوطنه أى شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم ، وقد هفا إلى منزله بعين شمس فلم يغب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال فى الوصول إليه . ولا يقلّ عنه محمود البارودى فى مدح مصر وهو بمنفاه بجزيرة (سيلان) حين يتنسم الهواء فيرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشميم الخلد قد حَمَلت ... ريّا الأزاهير من ميث وأجْرَاع[1]

(١) الميث : جمع ميثاء وهى الأرض اللينة ، والأجراع : الأرض السهلة .

يا هَلْ أَرانى بذاك الحىّ مجتمعاً بأهل ودّىَ من قومى وأشياعى

فنسيمها كنسيم الجنة يحمل ريا الأزاهير من أرض وطنه الطرية اللينة ، ويتساءل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره ومحبيه من أهله وبنى قومه . والشعر الوطنى كثير فى أدبنا العربىّ يعيينا حصره وعرضه فى هذه الصفحات القليلة ، فقد مرت بالوطن العربىّ هزات عنيفة على مر الأجيال ، خرجوا من جنان النعيم ، فغادروا الأندلس فى القديم وذكروا فى كل مناسبة أو لكل حادثة أرضهم الحبيبة ، والحدائق الغناء التى كانت تلف منازلهم والقصور الشماء التى كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذى كان يغذى صدورهم ، فبكوها بكاء لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر ما لا يحدّ ، والناس يذكرون قصيدة الرندى فى مدح الأندلس ورثائها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتتار والمغول ، وهجروا ديارهم لهجمات هؤلاء البرابرة ، وبكوا فى قصائد عامرة بعدهم وحبهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل فيه المدامع وتختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر الثناء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب فى القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغرّبوا ، ومدحوا كذلك ما خافوا . ولا تسل عن قصائدهم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم فى الوطن وحب الديار بما يملأ الصفحات ثنـــاء عاطراً على الغوطتين ومشارف بردى وقاسيون ، وشطآن دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثمانى فهاجروا إلى ديار العالم الجديد ، ولكن قلبهم ظل عالقاً بصخور لبنان وينابيع الشام وطرق بيروت وحمص فأرسل شعراء المهجر فى مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصة وحنين وإكبار واحترام .

وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير

سكانها ما يتضاءل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا فى مديحها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول الفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطنى الذى يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد فى نظمه وخياله وتعبيره . قد أخذ عن الشعر الغربى شعور أهل الغرب بحب الوطن ، حتى لكأنه يقف له أو يقلده أ يترجمه .

* * *

٢ ــ البلدان :

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخم . تسيل فيه عواطف الحب والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والربى والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها . فالوا إلى مكة والمدينة ، وقالوا فيهما شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر الدينى لما يظهر فيه من حب للكعبة وتقديس لروضة الرسول . وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور .

وقالوا فى بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامى خلال قرون عدة . فقال شاعرهم ابن زريق :

هيهات بغدادُ الدنيا بأجمعها عندى وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مفلس يصفها فى غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة حوت كلّ ما لذ للأنفس

ولكنها منيـــة الموسرين كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنامُ بها عين الغريب ولا ترى غريباً بأرض الشام يطمع فى الغمْض

ولن نستنفد هنا أجمل ما قيل فيها . فكله جميل تجده فى تاريخها وفى الكتب

التى تشيد بمحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير فى كل بلدة سكنها شعراؤنا ، وتجد بعضه فى معجم البلدان لياقوت ، أو فى كتب فضائل البلدان ، فقد ألف فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطايب الشعر والنثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، فى فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جُمع الشعر الذى جاء فى مدحها لأربى على ديوان كبير فى هذا الباب .

فقد قال الشعراء فى مدح همذان على شدة بردها وزمهريرها ، وقالوا فى هراة لخصبها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا فى بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس فى الموصل وحلب ، وقال كشاجم فى مدح مصر :

كأنها الجنة التى جمعت ما تشتهى الأعين والأنفس

وقد اشتهر الصنوبرى بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها فى قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسروها وساحاتها وميادينها وحاراتها ، مما عرضنا لبعضه فى كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمى حلباً دا رًا وأحْمى مَنْ حَمَاها
أىّ حسن ما حَوَته حلبٌ أو ما حواها
فاخْرِى يا حلب المدْ ن يزد جاهُك جاها
فلعمرى إنْ تلك المدْ نُ رخاخاً كنتِ شاها

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهى فى نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رخاخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فيرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكلّلها بالفواكه فى أبهى المناظر :

صفَتْ دُنْيَا دمشق لساكنيها فلَسْتَ تَرى بغير دمشق دُنيا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا فى صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون فى ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مدّاح. فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه فى كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر فى جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

• • •

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا فى الوطن وغير الوطن : فقال شوقى فى مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .

ومن قوله فى دمشق :

قَالَ الرِّفَاقُ ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا ... الأَرْضُ دَارٌ لها الفَيْحَاءُ بُسْتَانُ

جَرَى وصَفَّق يلقانا بها بَرَدى ... كما تلقَّاك دُون الخلد رضوانُ

فوصف مدخل دمشق والخمائل من يمين وشمال تحف بالوافد وتتلقاه فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ؛ وبردى يشق الطريق مسرعاً ليرحب بالزائر الكريم ؛ كأنه رضوان فى جنان الخلد . ومن قوله فى بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملكوته

هو ذروة فى الحسن غير مرومة ... وذرا البراعة والحجى بيروته

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنة من أجمل ما أبدع الله ؛ لأنه ذروة فى الحسن ، وعاصمته رأس فى البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان وأنشد فى الثناء عليها قصيدة عامرة ، وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل الغضبان بلده حلب ؛ وقد طال مقامه فى مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته

عانقها بهذه الأبيات :

حتى بَدَتْ حَلَبُ حَسْناءَ لَابِسةً ثَوْباً أَغَرَّ بوشْيِ اللهِ مُزْدَانا
تمثَّلتْ لِيَ سلطاناً وقلعتُها تاجاً يتيه بهِ عِزًّا وسلطانا
تحكِي حَدَائِقُها حَفَّتْ منازِلَها بحرًا سحيقَ المدَى بالسُّفْنِ ملآنا

ثم يصف المآذن فى قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ، وقلعته فى قلبه كتاج يتيه على مفرق الحاضرة . شاهداً على العز والسلطان ، ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله فى القطرين أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً فى الغرب . وأنشد محمد عبد الغنى حسن فى مديح كثير من المدن الأوربية عرفها وأقام فيها . فعاج بالذكرى إليها يملأ الحنين نفسه . فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً فى البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ، كما مدح شعراء المهجر منبت عزهم ومولد عبقريتهم . وقد جرى قلمنا فى عرض قصائدهم لكتاب الوصف . فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن المديح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء . حين استطاعوا أن يتخيلوا هؤلاء قريباً منهم يناجونهم كالأحياء ، أو يتمثلوا الجماد يتكلم ويسمع . وقد تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعياً وراء الشهرة حيناً ، أو طوافاً على أبواب الوجهاء فى كسب المال . أو تعبيراً عن عاطفة دينية . أو إظهاراً لشعور التشيع . أو مشاركة فى السياسة . أو ثناء على الأوطان ، وإشادة بمعامر البلدان .